نظرة في مصرع كليوباتره

بحث انتقادي في الرواية الشعرية التي اخرجها حديثاً احمد شوقي بك

للاستاذ انيس المقدسي

أستاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

لما تلقينا نسخة من مصرع كليوباتره بعثنا بها الى صديقنا الاستاذ المقدسي وعهدنا اليه في كتابة فصل انتقادي في تحليلها فلبى طلب المتطفل بهذا المقال النفيس. ولا يفوتنا ان نذكر في هذا المقام ما للمرحوم نجيب الحداد وخليل بك مطران والدكتور احمد زكي ابو شادي من الفضل والأثر في الرواية الشعرية العربية . ولعلنا نعود الى هذا البحث في حين آخر

مميزات الشعر العربي

مهما بلغ العرب في ميدان القريض ومهما بلغ بنا الحب لما خلفوه من آثارهم الشعرية الخالدة فانهُ لا مندوحة عن الاعتراف ان السلف الصالح لم يتفنّنوا في الشعر تفنّنهم في سائر العلوم . تلك قضية لا اتطرّق الى القول انها حقيقة لا تقبل النزاع والجدل ولكن النظر في تاريخ الشعر نظراً مجرداً عن الهوى يميل بنا الى اثباتها . فقد كانت نزعات العرب الشعرية ولا تزال مندفعة في مجرى واحد لم تتحول كثيراً الى سواه. هو الشعر الوجداني (subjective) او الذاتي (ذاتي) الذي يدور حول نفس الشاعر كما تدور الارض على محورها وينحصر في تأثراته الخاصة كأنما الطبيعة انما خلقت لافراحه او اتراحه وكأنّ الحياة كلها ما يختص بذاته او ذويه . فاذا رأى مشهداً فتانا من مشاهد الطبيعة هاجت عواطفه فشكى او بكى او وصف ما يراه وصف المذكر المتذكّر . واذا ما خاض غمار الحياة اثار ذلك فيه غضباً على عدوٍّ يناوئه او فخراً بقبيل ينتسب اليه او مدحاً لعظيم ينيله

***

لا جرم يحق للعرب ان يفاخروا بشعرهم الوجداني فقد بلغ عندهم في كل فنونه اسمى الدرجات وما تاريخ الشعر العربي لدى التحقيق الاّ وصف لهذا النوع من القريض في اختلاف احواله وبيئاته . نعم لا يخلو تاريخ أدبنا من بعض الشعر الموضوعي او الكوني (Objective) وهو الشعر الذي يمثل احوال الحياة والعمران كما هي ولكنهُ قليل جدًّا.

وأكثره اذا حللناه يعود الى النوع الاول الذي تبرز فيه شخصية الشاعر وتغشى كل شيء سوى مشاعره ونزعاته . وقد عني الغربيون قديماً وحديثاً بالشعر الموضوعي واقتبسوا في ضروبه المختلفة من ملاحم فروسية ووقائع قصصية وروايات تمثيلية وقلما اكترث له الساميون. ولا ادري لذلك سبباً الا ان يقال ان تلك طبيعة الامم فقد امتاز الساميون عموماً بالاناشيد الشجية الناشئة عن انفعالات النفس لدى حادث مؤثر فجاءت حكمتهم كما قال الشهرستاني عن العرب « فلتات الطبع وخطرات الفكر » . هم يلمحون الاشياء واحداً واحداً ويتأثرون بما يشاهدونهُ تأثراً شديداً فيعبرون عن تأثرهم بشعر بليغ ولكنهم لا يهتمون بان يقارنوا الامور بسواها او ينظروا الى الحياة والكون نظراً شاملاً . وعلى عكس ذلك الآريون فانهم لا يلمحون الا جزءًا فقط ولكنهم يرون العلائق والروابط التي تجعل الحياة او الطبيعة « كلاً » متناسباً . تجد ذلك في موسيقانا التي تضرب على وتر واحد لا تتعداه وفي موسيقاهم التي تميل الى تآلف الالحان وتناسق النغمات . وتجده في دواوين شعرائهم الحافلة بالروايات والملاحم يصفون بها عواطف البشر ومنازع الحياة الاجتماعية

قد نجاري الغربيين او نفوقهم في شرح تأثرنا من حادثة او مشهد ولكننا دونهم في محاولتنا ان نفكر ونتروى فيما حولنا من روائع الكائنات وسنن الحياة والاجتماع . ذلك التأمل الهادىء الذي يمكن الانسان من فهم عواطف الآخرين والنطق بلسانهم وتفهم عبر التاريخ والطبيعة والعمران ليس له ازكى في تاريخ الشعر العربي . وليس في انتقادات المرّي وحكم المتنبي وتأملات الفارض ما يناقض قولنا هذا

على انهُ من الخطل ان يقال ان هذا النقص في الشعر العربي قضاء سرمدي لا مهرب منه وان العرب انما وجدوا ليقفوا على ما وجدوا عليه . ذلك يخالف لسنة الارتقاء . فقد تنبه شعراؤهم المتأخرون الى هذا الامر وقاموا في الاونة الاخيرة بحركة جديدة ترمي الى تجديد الشعر ودفعه في مجارٍ جديدة . فهم يحاولون ان يفكروا ويتأملوا ويخرجوا عن منطقة الذات المحدودة الى رحاب الحياة الواسعة

***

وقد كنت منذ صباي من الذين أعجبوا بشاعرية شوقي ورأوا فيها اناقة ممتازة . على اني كنت ولا ازال من الذين يرمون الى توسيع نطاق الشعر العربي وقد بسطت ما اختبرته من ذلك في رسالة مسهبة لشرها المقتطف لما احتفل بويبل شوقي وموضوعها « الشعر ومراميه العالية » . ولشد ما كان اغتباطي عند ما تناولت مؤخراً « مصرع كليوباترة » ووجدت ان شاعرية شوقي الممتازة قد تحولت عن مجرى الشعر الوجداني المألوف الى رواية تمثيلية هي تحفة

فنية في معانيها ومبانيها. ولا ابالغ اذا قلت انها تكاد تقابل بأجل ما قرأت للغربيين في هذا النوع ففيها النكات المستملحة والاوصاف الشائقة والحكم البليغة مع خلو من السفسفة والركاكة

صراع الرواية

تدور هذه الرواية على مصرع الملكة الفتانة كليوباترة وعلى مصرع محبها القائد الروماني الكبير مرقس انطونيوس . والناظر في الرواية يراها تضرب على وتر واحد لكنه خلاب هو تمجيد كليوباتره وبالتالي تمجيد عرش مصر . ولعله اذا انعم النظر وقرأ ماوراء السطور رأى في حوادث الرواية وأشخاصها ما يكاد يكون مماثلاً لحالة مصر اليوم ومن يدري ما في اعماق نفس الشاعر من نزعات سياسية او وطنية — استميحه العذر على هذا الظن — بل قد يكون في جو مصر اليوم ما اوحى الى الشاعر دون ان يدري فكرة كليوباترة اليونانية المتمصرة « والسلطة » الرومانية الطاغية والكاهن المصري المتعصب لوطنه وحزبه و« حابي » الوطني الناقم وغيرهم من اشخاص الرواية . وهل نفس الشاعر القومي الا لوحة حساسة ترتسم عليها العواطف والاميال القومية . وهنا تتجلى روح شوقي — انظر الى شعره منذ عرض الشعر الى الآن واترك بعض ما لا يروقك من مدحه وتزلفه أقلا ترى فيه تلك النزعة القومية التي تتقد من آن الى آخر في بعض قصائده الطنانة اتقاداً تهتز له جوارح الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً وتصبح على الالسن كما قال المتنبي في نفسه « اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا »

وفي هذا اليوم وقلوب المصريين متجهة الى توطيد استقلال بلادهم والى تعظيم قوميتهم ورفع شأنها نرى شوقي يقوم فيذكرهم بما كان لهم ايام ملكتهم الشهيرة من عظمة ومجد ويريهم كيف ضاعت بعدئذ آمال العرش والامة . وقد سلك الشاعر في ذلك مسلكاً لم يُتبع للمؤرخ . فان التاريخ ينسب كليوباتره الى اليونان ويرجع مجدها (ان كان لها من مجد) الى البطالسة خلفاء الاسكندر . اما شاعرنا فقد تخطى ذلك بحذق وسكينة الى منطقة العلوم النفسية ليرينا كيف تتطبع النفوس وتصطبغ المشاعر . حوّل جنسية الملكة تحويل الفنان الماهر وقلب طباعها فجعل لها عصبية مصرية تغار عليها وتتفانى في سبيلها . وكأني بشوقي هنا يلمح العرش المصري الحالي ويقابله مقابلة خفية بعرش كليوباتره . كلاهما من اصل غير مصري وكلاهما اصبحا مصريين صميمين . هوذا العصبية القديمة تموت في الوطن الجديد ! فكر شعري جميل لا ادري اذا كان شاعرنا قصد اليه . ولكن هل اولى من شوقي ان يجسمه بساحر الالفاظ والعبارات . او ليس الشاعر الحقيقي هو الذي يوحي الينا شعره مختلف الآمال والاماني ؟

اما موقفه لدى شخصية الملكة فجريء جداً . يجابه الحقيقة المعروفة لاجل غرضه . فيحاول ان يبرّئها من كل تهمة وصمها التاريخ بها . الا ترى كيف يصفها وصفاً يحملك على الاعتقاد ان المؤرخين تحاملوا على تلك الحسناء الناعسة الحظ ؟ تلك مقدرة الشاعر . بسحر الفاظه ييسّر اعتقادك ويكسب رضاك . فكأن شوقي هنا ابو نؤاس في خمرياته يحبّب اليك الخمر وانت تنكرها وتعجبها او عمر بن ابي ربيعة في بعض مجاذلاته يثير شعورك وشفقتك وانت تكره عمله وتنفر منهُ

استغفر الله ليس شوقي هذا ولا ذاك . بل هو ابعد نظراً واسدّ رأياً . هو يبني نظريتهُ في الملكة على اجتهاد عقلي قد لا يكون بعيداً عن الحقيقة . ولكنّ في النظرية وهناً وشيئاً من التناقض . فهي عنده وقيّة لغرام اذا لم تعترضها المطامع السياسية . وهي طاهرة نقية النفس ولكنها تبذل جمالها لاجل المجد . وهي بعيدة النظر في الامور ولكنها في احرج المواقف تقول اليوم خمر وغداً امر . وهي حازمة ولكنها تتصرّف امام قادة الرومان تصرُّفاً يدلّ على طيش وغرور . ان شوقي « الشاعر » يتطوع لنصرة كليوباترا مستقلاً كما يقول عن كل « نفوذ اجنبي » او تأثير تاريخي . فهو يرى « ان البحث العلمي يكشف بين الحين والحين في هذا التاريخ المتّهم عن حلقات ضائعة او اوهام ازلت فيه منزلة الحقائق فلا بدّ من انصاف هذه المصرية المضطهدة والا تحرم على الاقلّ من سمو الغاية ونبالة القصد »

ولا يسعنا نحن هنا ان نحقق او نجرّح ما ذكرهُ التاريخ عن كليوباترا فذلك ليس لنا ولكن لنا ان نقول ان الشاعر سلك في التاريخ مسلكاً دقيقاً وخطراً فهو يتّهم التاريخ ويتمسك بالاجتهاد العقلي اتكالاً على ان البحث الحديث يكشف عن حقائق ضائعة وان الذين كتبوا تاريخ تلك الملكة هم اعداؤها . ونحن اذا اعتبرنا الغرض من الرواية رأينا ان الشاعر وفق كلّ التوفيق في الدفاع عن مليكته . والى القارىء بعض اوصافه فيها —

سمة الصدر : قالت نائب حاجي احد « الموظفين » في مكتبتها وكان من الناقمين عليها

وترسل في العرش هجر الكلام وتخفي الحفيظة لي والقلى
ولكن لنفسَ الذي قد مضى فتلك تاب ومثلي عفا
دع الذود عن مصر لي انني انا السيف والآخرون العصا

الاباء والانفة : قالت تخاطب انويس الكاهن وقد خشيت ان يأسرها الرومان

ابي لا العزلَ خفتُ ولا المنايا ولكن ان يسيروا بي سبيّا
ابوطأ بالمناسم عرش مصر وتمت شعرة في مفرقيّا

الطموح : من كلام الكاهن وقد وقف لدى جثتها

ان تصحي جسداً فنفسك حرة وعلاك هالةٌ وعرضك ناجي
سيقول بعدك كل جيل منصف ذهبت ولكن في سبيل التاج

ولعلَّ ابلغ دفاع عنها ما وضعهُ الشاعر على لسانها قبيل انحدارها صفحة ٩٤

اما سائر اشخاص الرواية فليسوا مما يتنازع فيهم وقد كفانا ذيل الرواية النزي عناء نقدهم . بقي علينا كلمة في شعر الرواية وسبكها مع امثلة من اطايب الكلام فيها

شعر الرواية وشاعريتها

الحق اني لم ار في شعر شوقي ما هو ادلُّ على قوة شاعريته من هذه الرواية. قد تخالفني في ذلك وتشير الى بعض قصائده الرائعة المشهورة التي اصبحت ملء الافواه والآذان . فاقول ان تلك القصائد على بلاغتها هبّات نفسية تثيرها حادثة وقتية شديدة التأثير فالاغراب اذا بلغت اوج البلاغة الشعرية . اما اناشيد هذه الرواية فشعرٌ هادئ مفكر مقرون ببلاغة وجمال . هي معرض لتحف شعرية نادرة . فيها المدح والفخر والعتاب والهجاء والحكم والسياسة والحب والخمر والظرف . وهذه التحف في غاية ما يكون من حسن التناسق والتآلف فليست هي خاطراً ناشئاً عن مؤثر خاص كحج الخديوي مثلا او كنوز توت عنخ امون او سقوط عبد الحميد او موت بطرس غالي او زيارة الشام . في مثل هذه الخواطر قد يجد الشاعر الكبير من يجاريه من اقرانه او يتأثر تأثرهُ ولكن الشاعر يمتاز اذا استطاع ان يبدع وهو في جو هادئ يتأمل وينظر . يمتاز اذا استطاع ان يخرج عن نفسه قليلاً الى الكون فيريك جماله ومعانيه والى الحياة فيوقفك على منازعها واحوالها . وذلك ما فعلهُ شوقي في هذه الرواية . ينطق الملك والكاهن والخادم والعاشق والقائد والماجن وسواهم نطقاً ترتاح اليهِ النفس ويحدثك عن علاقات الناس وخوالج نفوسهم حديثاً صحيحاً يهزّ الجوارح . وقد كنت اجد احياناً في بعض منظومات شوقي ما يحدوني الى الشك في تفوقهِ او في سمو خياله وكنت اجدني على غير انتباه بين من ينعى عليهِ القوة على التجدد والتطور حتى قرأت روايتهُ هذه فقلت شوقي شاعر يحق لنا ان نفتخر به . واليك بعض الامثلة من شعره في « مصرع كليوباترا »

١ — الطوبيو قبيل انحداره يخاطب روما وقد هزمتهُ جيوش اوكتافيوس وجاءه الخبر ان كليوباترا قد انتحرت . وهو موقف دقيق يحاول فيهِ الشاعر ان يجمع في هذا القائد الروماني العظيم الوفاء للوطن والوفاء للحب فيغلب غرامهُ حبَّهُ لوطنهِ ويعتذر عن

ذلك اعتذاراً رقيقاً يثير في نفس القارىء الشفقة عليه . قال من قصيدة صفحة ٥٦

روما حنانك واغفري لفتاكِ اوّاهُ منكِ وآهِ ما اقساكِ
روما سلامٌ من طريدٍ ثائرٍ في الارض وطّن نفسه لهلاكِ
اليوم يلقى الموت لم يهتف به ناعٍ ولا ضجت عليه بواكِ
ان الذي اعطاكِ سلطان الثرى لم تسمي لرقاته بتراكِ
يا رب تاج في جبينك زاهرٍ عطّلتُ منهُ مفارق الاملاكِ
الامهات قلوبهنّ رقيقةٌ ما بال قلبك لم يلن لفتاكِ
ان كان موتي كل ما تبغينهُ فهنَاكِ . هأنذا اموت هنَاكِ
يا امَّ عذرك في اتّهام بنوّتي بادٍ وعذري في العقوق كذاكِ
لولا الجمالُ وفتنةٌ من سحرهِ ماحل في قلبي هوًى لسواكِ
صفحاً كليوباترا فربّت زلّةٍ قد كنت تغتفرين حين اراكِ
لمّا لقيتكِ في الجمال وعزّه قهرتْ قواي الظافراتِ قُواكِ
فنسيتُ في ناديك ذكر وقائعي وسلوت ايامي يوم لقاكِ الخ

ومن المواقف الرائعة في الرواية حديث الملكة واتوبيس الكاهن وهو يصف لها سمّ الافاعي ويحاول ان يشهرها لتقدم على الانتحار حفظاً لشرف العرش المصري . ولا احاول ان انقل هنا ما دار من الحديث الرقيق بينهما ولكني احيل القارىء الى صفحة ٦٩ الى ٧٠ من الكتاب نقراءتهُ هناك اولى واحفظ لجماله . ويشجيني جدًّا خطاب الملكة لزنبقة صفحة ٨٩ . وكانت الملكة بحسب الرواية اسيرة في قصرها وقد اقام اوكتافيوس عليها الحرّاس والرقباء فالتفتت الى زنبقة عندها في اصيص وقالت تقابل حالها بحالها

زنبقـة في الآنيهْ ضحية الانانيـــــه
جئتْ عليكِ غربةَ الامر الأكفّ الجانيـهْ
وبدّلتْ من سعةِ الرّبوة ضيق الباطيهْ
يسقونها من جرّةٍ بعد البيون الجاريهْ
يا جارتا شأنك لا يشبهُ الا شانيهْ
لم يبقِ من ملكي العريض غير دارٍ خاويهْ
وكلّنا ذابلةٌ عمّا قليلٍ ذاويهْ
زال النعيمُ وفرغنا من حياةٍ فانيهْ

ولعلّ أبدع مواقف الرواية الشعرية خطاب الملكة الى ايزيس صفحة ٨٩ وقد

ضنّت على الانتحار فركبت امام تمثال الالاهة واخذت تحدّثها بحديث حياتها وتقابل نفسها بالدنيا ثم تعطف على الموت وتطلب منهُ ان ينقلها برفق الى حيث حبيبها انطونيو

اليوم أقصر باطلي وضلالي ... وخلتُ كاحلام الكرى آمالي
وصحوتُ من لعب الحياة ولهوها ... فوجدتُ للدنيا خمارَ زوالِ
وتلفّتت عيني فلا بمواكبي ... بَصُرتْ ولا بكتائبي ورجالي
ايزيسُ يُنبوع الحنان تعطفي ... وتلفتي لضراعتي وسؤالي
انّي وقفتُ على رحابك فارحمي ... ذلّ الملوك لمجدك المتعالي
هل تأذنين بأن اعجّل نقلتي ... واحثَّ عن دار الشقاء رحالي
وعُلاكِ ما ادع الحياة جبانة ... او ضيق ذرع او قطيعة قالِ
انّي اتقيت بمبقريّ جمالها ... وتمتعتُ من عبقريّ جمالي
وجمعت بين شعورها وعواطفي ... وقرنت رحب خيالها بخيالي
ووجدتها قد خلّدت ابطالها ... فبسطتُ سلطاني على الابطال
بنتُ الحياة انا وتشهد سيرتي ... ما كنت من امّتي سوى تمثالِ
منها تناولتُ الرياء وراثة ... واخذتُ كلَّ خديعةٍ ومحالِ
وقسوتُ قسوتها ولنت كلينها ... وانتسبتُ في صدري لها ووصالي
ولربما رشدتْ فسرتُ برشدها ... وغوتْ فاغوتني وضلَّ ضلالي
ووجدتها حبًّا يفيض ولذّةً ... فجعلتُ لذّات الهوى اشغالي
يومي بايام لكثرة ما مشت ... فيهِ الحياة وليلتي بليالي
يا موتُ هل حرجٌ على مستعجلٍ ... بك ان يسابق واقع الآجالِ
يومي اعجّلهُ ولو لم انتحرْ ... لقيتُ يوماً ما لهُ من تالِ
يا موت انت احبُّ اسراً قاسني ... لا تعط روما والشيوخ عقالي
يا موت لا تطفىء بشاشة هيكلي ... واحفظ جواهر لحمتي وجلالي
يا موت طف بالروح واسرقها كما ... سرق الكرى عين الخليّ السالي
حتى اموت كما حييتُ كانني ... بيت الخيال ودمية المثالِ
وكأن اغماض الجفون تناعس ... وكأنَّ رقدتي اضطجاع دلالِ
سرْ بي الى انطونيو في نضرتي ... ورواء جلبابي وزينة حالي

ثم تقوم الى احدى السلال فتكشف عن افعى وتحدثها ذاكرة حالها وما صارت اليه من هوان الاسر وفي هذا الحديث ما فيهِ من جمال وسحر . انقل هنا للقارىء بعض ابياته — قالت :

هلمَّ الآنَ منقذي هلمّي واهلاً بالخلاص وقد سعى لي
على نابيك من زرق المنايا شفاء النفس من سود الليالي
وبعض السمّ ترياق لبعضٍ وقد يشفي العضال من العضالِ
هلمّي عانقي افعى قصورٍ بها أشوق الى افعى التلالِ
ضغطتُ روما على ملكي ولصّت جواهرَ اسرتي وحليَّ آلي
فرمت الموت لم اجبن ولكنْ لعل جلالهُ يحمي جلالي
أأدخل في ثياب الذلِ روما وأعرضُ كالسبيّ على الرجالِ
يراني في الحبائل مترفوها وقد كان القياصر في حبالي
اذن غير الملوك ابي وجدي وغير طرازهم عمي وخالي
أموت كما حييتُ امرش مصرٍ وابذلُ دونهُ عرش الجمالِ
حياةُ الذلِ تدفع بالمنايا تعالي حية الوادي تعالي

هذه امثلة تالية من اطايب هذه الرواية ولو اردت الاسهاب لارجعت القارىء الى حديث انوبيس الى الافاعي صفحة ٦١ والى الوصف ص ١٥ والى خطاب انطونيو لأوروس ص ٥٨ والى حديث انوبيس وحابي ص ٦٣ والى الحكم التي وضّح بها الشاعر اناشيد الرواية : كقوله

الرأي ليس ناضباً اذا اوانهُ مضى

يقيد القلب وراء مرصدهْ فيحرس الدارَ على مقيدهْ

الا يا رب خدّاعٍ من الناس تلاقيهِ
يعيب السمَّ في الافعى وكلُّ السم في فيهِ

هداك الله من شعب بريء يصرفهُ المضلّل كيف شاء

ارى راكب الشك ملء الجمال طويل العنان بعيد المدى
ولو شككت في السرج الفراش لكان سلاماً عليها السّنا

وتحسب في الكتب علم الحياة وما منهُ في الكتب الاّ شذا

لسان ابن آدم او نابكن كلا الساثلين لعابُ القدرهْ

وان الناموت فعل الشبا لب ليس الناموت فعل السباع
وما جثة الليث الاّ لقىً اذا الناب طاحت او الظفر ضاعْ

انيس الخوري المقدسي